التأصيل الإسلامي للعلوم الإنسانية والاجتماعية (مقاربة ابستمولوجية)

✍ د. شبلي براهيمي
أستاذ محاضر "أ" بجامعة الجزائر 02
✍ د. اسماعيل بوعمامة
أستاذ محاضر "أ" بجامعة الجزائر 02

ملخص باللغة العربية:

تعتبر المراجعة الابستمولوجية للمعرفة في إطار التكييف الثقافي والإسلامي من الموضوعات الهامة والبارزة على ساحة المهتمين والباحثين، خاصة إذا تعلق الأمر بتطبيق المعارف المتوصل إليها في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية في حضارات غربية على مجتمعات عربية إسلامية، وفي ذلك يرى العديد من الباحثين أن أزمة العلوم الإنسانية والاجتماعية غير واعية لتبعيتها إزاء الحياة التي تدعي مراقبتها، وبالتالي غير واعية لنسبة النظرة التي تتمتع بها، ونتيجة لذلك وضع هذا العلم نفسه في مكان المؤثر في مجريات الأمور الاجتماعية دون أن ينظر إلى الكيفية التي يمكن أن تؤثر بها فيه هذه العوامل الاجتماعية الحضارية من ناحية مادته وممارساته، ويمكن النظر إلى واقع الدراسات النفسية والاجتماعية في المجتمع المسلم أنها علاقة استيراد وتصدير تتم من جانب واحد بالاعتماد المعرفي على الغرب وقطع الصلة بالتراث الثقافي المسلم والاغتراب وفقدان الهوية الثقافية، ونتيجة لذلك ظهرت حركات جديدة تنادي بالتأصيل الإسلامي للعلوم الإنسانية والاجتماعية، والذي يعبر عن عملية نقد وإعادة بناء هذه العلوم في ضوء التصور الإسلامي للإنسان والمجتمع والوجود وذلك باستخدام منهج يتكامل فيه الوحي الصحيح مع الواقع المشاهد كمصدر للمعرفة، لأن التقدم العلمي لا يتطور من

خلال التراكم المعرفي ولكن من خلال نشأة ما يسمى "بالأطر المعرفية" وهو سابق للعلم فهو يوجهه ويؤثر فيه وهو يتكون من الالتزامات العقلية والاتجاهات الإيديولوجية لدى العلماء.

الكلمات المفتاحية: الابستمولوجيا، التأصيل الإسلامي، العلوم الإنسانية والاجتماعية، علم النفس.

الملخص باللغة الانجليزية:

Epistemological references of knowledge , within the cultural and Islamic adaptation framework, is considered as one of the most major topics for researchers and interested people, especially with regards to applying the knowledge reacted of human and social sciences coming from western civilizations in the Arabic and Islamic societies. Many researchers suggest that human and social sciences dilemma are unaware because they are dependent to the life supposedly observe.It is not aware as well because of the degree of its vision. Therefore, thins kind of science has been considered as the one that influences the social matters without paying attention to the way it does so, from its content stand point and its practices as well. Psychological and social studies in the Muslim society can be described as a one-way import-export relationship, on one hand because the researchers being relying on the scientific subject coming originally from the west, and because of breaking up with the Islamic cultural heritage, emigration and losing one's cultural identity. As a result, new movements have emerged calling for the Islamic authentication of the human and social sciences. These movements are based on criticism and reestablishment actions of these sciences in the light of the Islamic conception of man, society and existence. They rely on approaches combining the true revelation and reality as a source of knowledge. This is due to the fact that science advances through what is known as the "Cognitive Frameworks" not by accumulation of knowledge. These frameworks precede science itself, it guides it and affects it as well. The Cognitive Frameworks are the combination of scientists' cognitive commitments and their ideological orientations.

Key words : Epistemologiy- Islamic authentication- human and social sciences- psychology.

مقدمة:

تعرف الابستمولوجيا بفلسفة للعلوم وهي تقوم بخطوتين الأولى وصفية، بوصف العلم وتصنيفه، والثانية تركيبية حول وظيفة العلوم وعلاقتها فيما بينها[1] فإن الحديث عن علم النفس في ثقافة إسلامية يعد حاجة معرفية بعد ما عرفته البلدان الإسلامية من استيراد مكثف للمعارف دون تمحيص أو مراقبة، وفي هذا المجال عرف العالم أجمع مفهوم التكييف لأسس التشخيص والعلاج النفسي حتى تتماشى تلك الأسس والبيئة الاجتماعية والثقافية التي تطبق فيها، وللقيام بهذا العمل هناك بعض المحاور الهامة للسائر في طريق التأصيل الإسلامي للعلوم الإنسانية بعامة وعلم النفس بخاصة حيث ترتكز هذه المحاور على بعض المهمات أو الأسس التي تجنب وقوع الباحث والمهتم في المغالطات، وبالتالي الانتقادات، خاصة وأن التأصيل مازال إلى حد الآن حديث النشأة، يتطلب وضع ركائز قوية متينة يقوم عليها هذا الاتجاه حتى تعطي جهوده في البلاد الإسلامية ثمارا زكية نقية.

1- واقع العلاقة بين الغرب والعالم المسلم في مجال الدراسات النفسية:

لخص فؤاد أبو حطب واقع العلاقة بين الغرب، والعالم المسلم في مجال الدراسات النفسية في مجموعة من النقاط هي:

أ. علاقة استيراد، وتصدير تتم من جانب واحد دائما.

ب. الاعتماد العلمي على الغرب (نظريات، نماذج، ومنهاج، واختبارات).

ت. قطع الصلة بالتراث الثقافي المسلم، واعتبار القديم عائقا عن التقدم.

ث. انتشار البدع الثقافية في العلم (معظم التراث الغربي المستورد لم يتم اختباره على ضوء الحاجات القومية والثقافية).

ج. كف التفكير الإبداعي وانتشار التكرار في أبحاث الماجستير والدكتوراه لما قاله علماء الغرب.

ح. الاغتراب وفقدان الهوية الثقافية.

خ. فقدان الهوية المهنية، أضف إلى ذلك ضعف التأهيل الكبير فيما يدرسه الأخصائي النفسي.

وفي ذلك يقول نجاتي: "إن علم النفس وجميع العلوم الإنسانية الأخرى التي تدرس في الجامعات في البلاد الإسلامية هي علوم غربية في فلسفتها ووجهتها، أسس نظرياتها علماء غربيون غير مسلمين، على أساس نتائج بحوث ودراسات أجريت في مجتمعات غربية غير مسلمة لها أساليبها في التفكير ولها فلسفتها الخاصة في طبيعة الحياة، وفي طبيعة الإنسان ورسالته في الحياة، وغايته منها، ولها معايير في دور الدين في حياة الإنسان." [2]

2- مواقف من مشروع التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية:

انطلاقا من مقولة غاستون باشلار "إن المعرفة تتطور بصورة جدلية"[3] فإن الحديث عن التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية يثير عدة قضايا جدلية ونقاشات بالقبول أو الرفض، ولكل وجهة نظره، وقد أفرزت هذه الاختلافات ثلاثة مواقف لخصها صالح ابراهيم الصنيع (2002) فيما يلي:

- **موقف الرفض باسم الإسلام:** هذا الموقف الذي يرفض علم النفس باسم الإسلام، ويرى أن المسلمين في غنى عنه، وقد قدم أصحاب هذا الموقف انتقادات كلها لا تتناول علم النفس بوصفه فرعا من العلوم الإنسانية، فهي إما انتقادات لبعض مناهجه، أو بعض تطبيقاته، أوبعض النظريات التي قالت بها بعض مدارسه وكل ذلك لا ينهض مستندا لرفع علم النفس، وجملة هذه الانتقادات تتمثل في:

أ- التشكيك في عملية علم النفس: والرد عليه أن درجة اليقين في علم النفس مثلها في العلوم الطبيعية ولا أحد الآن يتحدث عن موضوعية مطلقة.

ب- بناء علم النفس على حيوانية الإنسان: والرد عليه أن السلوكية بحد ذاتها هي التي كانت متحمسة لهذا الاتجاه المستند إلى نظرية التطور الداروينية، وليست كل نظريات علم النفس تستند إلى ذلك.

ج- الربط بين علم النفس، والتحليل الفرويدي: والرد عليه أن علم النفس ليس هو فرويد فقط، ولا فرويد هو علم النفس، بل علم النفس بحد ذاته يحتوي عدة اتجاهات وتيارات تعارض وبشدة ما يذهب إليه فرويد.

د- رفض التجريب في علم النفس: لكن التجريب أوسع من التجريب المعملي، فهناك الملاحظة الطبيعية والملاحظة الإكلينيكية، بالإضافة إلى المحافظة المعملية.

هـ- التهوين من شأن الاكتشاف في علم النفس: لكن كثيرا من الظواهر تكون معروفة، فيأتي العلم فيكشف القوانين التي تحكمها (كنظرية بافلوف في المنعكس الشرطي)، فلا تكون لتلك المعرفة الظاهرة أي قيمة عملية قبل اكتشاف العلاقات الوظيفية والقوانين التي تفسرها (كقانون الثقل لنيوتن).

و- تركيز علم النفس على السلوك المرضي: وهذا يخالف الفروع العديدة لعلم النفس، بل يخالف تعريفه الذي يعني الدراسة العلمية للسلوك سويا كان أو مرضيا.

ح- سوء استخدام علم النفس: وهذا لا يعيب العلم، وإنما يعيب الذي يسيء استخدامه، وليست نتائج البحث النفسي وحدها التي تتعرض لسوء الاستخدام، بل نتائج البحوث كلها عرضة لذلك.

وفي الردود العامة على هذه الانتقادات في البيئة الإسلامية يقال:

إن الإسلام لا يقول بإنكار هذه العلوم، ولا بإعلان مخالفتها للإسلام إجمالا من غير تفصيل، فالإسلام أمر بالبحث في النفس الإنسانية، وأمر بتزكيتها وعلاجها قال

الله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[4]، وقوله سبحانه: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا *فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[5].

لذا فإن إصدار الفتوى بتحريم الاشتغال به لا يمثل بالضرورة موقف الإسلام الذي يدعو دائما إلى دراسات تفصيلية تتم على مرحلتين، الأولى فيها بحث ودراسة وإطلاع، والثانية فيها وزن ونقد وتقييم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن الإسلام لم يحرم على أمته أن تطلع على مختلف العلوم، ومن الأدلة على ذلك عندما وقعت غزوة بدر أسر المسلمون سبعين من المشركين، وكأداء لفداء بعض الأسرى أمر أن يعلم كل واحد منهم عشرة من المسلمين.ثم إن هذه العلوم الإنسانية قد فرضت نفسها في الميادين العلمية والاجتماعية فلم يجد الخيار بين قبولها ورفضها وإنما أصبح الخيار بين قبولها كما وفدت إلينا أو العمل على تصحيح مسارها وفق المعايير البيئية العربية المسلمة.

ولكن على الرغم من هذه الانتقادات والاعتراضات والأخذ والرد في مسالة قبول أو رفض علم النفس، إلا أنه يتحدد الفهم بدقة وتفصيل إذا ما تم النظر إلى محتويات علم النفس الحالي كالتالي:

أ- معلومات تتعارض مع الإسلام ولا تلاؤم البيئة الإسلامية وينظر في علميتها، لأن الحق لا يتعارض مع نفسه.

ب- معلومات صحيحة في نفسها لكن المسلمين مستغنون عنها بما عندهم في دينهم.

ج- معلومات صحيحة ومفيدة لكنها تحتاج إلى صياغة تجعلها في خدمة الأهداف الحضارية للأمة.

- **موقف الرفض باسم علم النفس:** لا زال الذي يغلب على المشتغلين بعلم النفس في المجتمع الإسلامي رفض هذا المشروع والتشكيك في إمكانية تحقيقه وليس هذا فقط فيمن يحمل العداء للإسلام ليتبنى هذا الموقف بل قد يكون متدينا لكنه يردد:

العلم علم والدين دين، كما قال أحدهم: "عندما أتعبد أدخل إلى الغرفة، وعندما أفكر أدخل إلى الغرفة الثانية."

وقال آخر: "لماذا لا نسمع عن حركات مماثلة كما في البلاد المسلمة نحو تمسيح العلوم، أو تهويد العلوم أو تبويذ العلوم."، فالأديان والعقائد في أنحاء العالم تعد بالمئات ولكن مناهج العلم واحدة ويجب أن تكون واحدة. ولكن الرد على الموقف يتخلص في قول روبرت مرتون: "إن العالم ليس حرا تماما فهو محاصر بقيم تم استدماجها في ضميره العلمي.". ويقول مالك عن سراسون: "إن علم النفس وضع نفسه في مكان المؤثر في مجريات الأمور الاجتماعية دون أن ينظر إلى الكيفية التي يمكن أن تؤثر بها فيه هذه العوامل الاجتماعية الحضارية من ناحية مادته وممارساته، إن تأثير الجوانب الاجتماعية الحضارية في مادة علم النفس، ونظرياته أصبحت جزءا منه لا يقل عن تأثير الهواء المحيط بنا، ودخوله في دمنا.". ويقول لاينيه بوفرس: "أن أزمة العلوم الإنسانية أنها غير واعية لتبعيتها إزاء الحياة التي تدعي مراقبتها وبالتالي غير واعية لنسبة النظرة التي تتمتع بها."

واختصارا لما يستند إليه الرافضون لمشروع التأصيل الإسلامي لعلم النفس أمور ثلاثة:

أ- أن تدخل الإسلام في علم النفس هو تدخل إيديولوجي في مجال علمي بحت، والرد عليه أن هذا التدخل الذي ندعو إليه لا يكون إيديولوجيا إلا إذا قدم الإسلام إجابات جاهزة وخاطئة وفروضا على علم النفس أن يتكيف معها ويؤيدها، ويحرف ناتج بحثه لتتفق معها، والإسلام على العكس من ذلك يرفع الايديولوجيا عن علم النفس، إنه يقدم إطارا للعلم ولا يراعي تطوره في هذا الإطار، وهذا الذي قالوا به هي الاديولوجية الوضعية التي تسلطت على العلوم في أوروبا على إثر الصراع الذي بين الإجابات الجاهزة للكنيسة، والاكتشافات العلمية.

ب- أن العلم يجب أن نأخذه كما هو في آخر مراحل تطوره بمستواه في البلدان المتقدمة، ولكن ربط علم النفس بالإسلام يستدعي مواكبة العلم في آخر اكتشافاته،

ونتائجه والاستفادة والوعي بها، والحذر من الوقوف على الجزء التاريخي منها ولا تعارض بين المواكبة وتبني حداثة العلم في تأصيل منهجي سليم لذلك، فإن هذا الاطلاع وهذه المواكبة إحدى خطوتين رئيسيتين في إنجاز البديل الإسلامي، وهي خطوة الاطلاع وخطوة الإبداع.

ج- أن العلم بجميع فروعه ذو طبيعة محايدة، وهذا الحياد في الحقيقة يصطبغ بثقافة أصحابه وبيئتهم، شاءت تلك العلوم أم أبت، أعلنت أم أخفت، صرحت أم لم تصرح[6].

د- ليست النظرية النفسية هي المقصودة في ذاتها بالتأصيل ولكن كيفية رؤيتها للمرض والعلاج هي ما يجعلها قائمة ودائمة، أما نحن ما هي نظريتنا؟ إنها تقوم على الثقافة حتى لا نقحم السجل الإسلامي، فإذا نجح العلاج جاز قولنا أن لنا علاجا إسلاميا وإذا لم ينجح العلاج ماذا نقول هل المشكل في المريض أم المرض؟

- **موقف القبول بفكرة التأصيل:** ويقوم على أن علم النفس يهتم بالنشاط الإنساني كله.

ويدرك هذا الموقف لخطورة الاستيراد في العلم دون تكييفه نحو العالم المسلم، وقد اهتمت لذلك العديد من الدول غير الإسلامية فأنشأت مراكز للبحث النفسي هدفها ليس الدراسة من أجل الدراسة بل الدراسة من أجل التغيير قصد إثبات الهوية الثقافية والدينية[7]. ويذكر الصنيع أن الكثير من رسائل الماجستير والدكتوراه في كل بلدان العالم الإسلامي قدمت فيها دراسات لأساليب علاجية جديدة مبنية على المنظور الإسلامي لعلاج العديد من الاضطرابات النفسية بل وصل الأمر إلى تطبيق علاجات من منظور إسلامي في جامعات غربية في أمريكا وبريطانيا وغيرها، منها دراسة الدكتوراه لسعيد وهاس في جامعة شفيلد لعلاج الهلوسات السمعية، وغيرها كثير يصعب حصره.
وفي ذات السياق يطرح الجابر (2013) سؤالا: "هل يمكن فعلا إيجاد نظرية نفسية نابعة من ثقافتنا؟" والتي سماها نظرية نفسية متكاملة نابعة من ثقافتنا وأصولنا الفكرية وصالحة لابن بيئتنا، وقد لفت ذلك أن بعض المدارس النفسية الكبرى الغربية المعاصرة هي في

حقيقتها إحياء لتراث قديم، فالغربيون أجروا مئات الأبحاث حول الطريقة اليونانية السقراطية العقلانية وأجروا منها العلاج المعرفي، ولهم سنوات يدرسون التأمل في تعاليم ديانة بوذا وأخرجوا منها العلاج بالتيقظ الذهني عرضوا منها في مجلة (جاما الطبية الأمريكية) 50 بحثا تجريبيا مقارنا[8]. والتي منها دراسة قويل وسينق وآخرون(2014) Goyal,Singh,et al

3- مشكلة المصطلح وتطوره:

تهتم الدراسات الابستمولوجية للمعرفة في دراسة كيفية تكوين المفاهيم وتحولها وكيفية تبادلها بين علم وعلم وكيفية تشكل حقل علمي ودراسة الأحكام والقواعد التي يعاد بمقتضاها تنظيم المفاهيم للعلم [9] ومن أجل ذلك تعددت المصطلحات التي استخدمها الباحثون في التعبير عن إعادة صياغة علم النفس (أو كغيره من العلوم الإنسانية) صياغة إسلامية وقد أحصى عبد الله بن ناصر الصبيح (2007) نقلا عن مرسي أربع مصطلحات شاع استعمالها بين الباحثين وهي:

1- علم النفس الإسلامي.
2- أسلمة علم النفس، أوإسلامية علم النفس.
3- التأصيل الإسلامي لعلم النفس.
4- التوجيه الإسلامي لعلم النفس.
5- التفسير الإسلامي لعلم النفس.

أ- علم النفس الإسلامي: أول من استعمل هذا المصطلح هو محمد عثمان نجاتي في كتابه "الإدراك الحسي عند ابن سينا" سنة (1948م) ويقصد بهذا المصطلح التراث النفسي الموجود في الحضارة الإسلامية وهذه دلالة لا تتجاوز الدلالة التاريخية وهو ناقص باعتبار أن هذا الاتجاه أبعد تصورا من ذلك في توجيه البحث في علم النفس.
ومن الأوائل كذلك من حاول تعريف هذا المصطلح هو أحمد فؤاد الأهواني في تقديمه لكتاب "الدراسات النفسية عند المسلمين لعبد الكريم عثمان" سنة (1981م) حيث

حدده بأنه فرع علم النفس الذي يدرس السلوك الإسلامي، فهو لا يعدو عنده أن يكون فرعا من فروع علم النفس الديني وهذا مرفوض عند كثير من الباحثين، ولا سيما بعد تطور مفهوم علم النفس الإسلامي، فلا أحد الآن من المعنيين بعلم النفس الإسلامي يقبل أن يكون ما يسعى إليه هو مجرد فرع لعلم النفس الديني هدفه دراسة السلوك الديني فقط بل ما يسعى إليه الباحثون هو تصحيح علم النفس القائم فكيف يكون فرعا له.

بل إن البعض ينازع في صفة الإسلامي، فلا يرى أن تضاف إلى علم النفس ويرى هؤلاء أن لا معنى لتخصيص هذا الفرع من الفروع المعرفية بالإسلام، ويسألون عن عجب قائلين: "ترى هل معنى ذلك أن فروع المعرفة الأخرى التي لم توصف بالإسلامية، هل هي كافرة؟"

والحقيقة أن لا يوجد علم كافر وآخر مسلم، وعندما توجد نظريات صائبة وأخرى خاطئة في بعضها تجدها مبنية على تصورات منحرفة معارضة للشريعة الإسلامية، ومع ذلك لم يسلبها ذلك صفة العلمية عند الكثير، بل أنها تدرس في بلاد المسلمين بصيغها المنحرفة، وبما أن التصور البديل لا زال في بدايته، والتصور الغالب هو التصور المنحرف، فلا بد من تمييز هذا التصور البديل عن السائد، وهذه التسمية ليس هدفها تمييز تصور عن آخر فحسب، وإنما لها وظيفة أخرى هي أنها إصبع اتهام مشهور على علم النفس الآخر لا يزال يذكر بخطئه، وينادي بالبديل عنه، لذلك لا يمانع من استعمال مصطلح (إسلامي) علما على علم النفس جديد يبنى على أسس إسلامية.

ب– أسلمة علم النفس: من أوائل من استعمل هذا المصطلح جعفر إدريس في منتصف السبعينيات في محاضرة ألقاها باللغة الانجليزية في مؤتمر (العلماء الاجتماعيين المسلمين) دعا فيها إلى أسلمة العلوم، ولكن لقي هذا المصطلح جدلا عريضا، واعتراضات متعددة منها:

من **الناحية اللغوية**: أن (أسلمة) لغة خطأ بسبب أن:

- أسلم فعل يأتي متعديا بمعنى فوض، تقول:"أسلم أمره لله أي سلمه."
- ويأتي بمعنى خذله، تقول: "أسلمه للعدوأي خذله."

– ويأتي بمعنى إنقاذ، صار مسلما (فعل لازم).

– وأسلمة علم النفس بالمعنى المستعمل اصطلاحا الذي يقصد به صياغة علم النفس صياغة إسلامية لا يتفق مع المعني اللغوي للفعل كما سبق، ولعل سبب هذا الخطأ هو الترجمة، فالأسلمة هي ترجمة الكلمة الانجليزية Islamisation وهي على كل حال كلمة محدثة في اللغة الانجليزية ومشتقة من كلمة إسلام العربية.

أما من **ناحية الاصطلاح**: فقد عرف المعهد العالمي للفكر الإسلامي أسلمة المعرفة أنها منهاج للحياة، وهي تحديدا: "جانب أساس وأولي في بنائها (الإسلامية) ويختص بالفكر والتصور، والمحتوى الإنساني القومي والفلسفي وكيفية بنائه، وتركيبه، وعلاقاته في العقل والنفس والضمير".

وعرفها جعفر إدريس (1987): "أسلمة العلوم بناؤها على أصول الإسلام الثابتة، والتقيد بالخلاق الإسلامية في البحث." وهذه المعاني والتعريفات متداخلة ويؤازر بعضها بعضا ولا غبار عليها.

ج– لتأصيل الإسلامي لعلم النفس: في لسان العرب والقاموس المحيط ومقاييس اللغة والصحاح في اللغة التأصيل من أصل وهو أسفل كل شيء وجمعه أصول وأصل الشيء أي صار ذا أصل، وفي جوهر المفهوم أن نأتي بما يستمد طاقته من أصولنا فهو يشير إلينا ويميزنا[10]. واستعمل هذا المصطلح سنة (1986م) في ندوة تحت اسم (التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية) التي عقدت في مدينة الرياض في جامعة (الإمام محمد بن سعود الإسلامية).

وقد اعترض على المصطلح (التأصيل) بأنه البحث عن أصول، فكيف نقول تأصيل وهذه العلوم موجودة، ورد عليه بأن التأصيل قد يكون لترميم شيء قائم، واعترض عليه كذلك باعتبار تأصيل علم النفس هو البحث عن أصول شيء موجود وهذا لا ينبغي، إن الموجود من علم النفس يعارض الإسلام، فلا يصح بحث أصول له في الإسلام، قالوا ولو سلمنا أنه لا بأس بذلك، فهو لا يكفي إذ لابد من إيجاد بدائل وتصورات

جديدة في علم النفس من الإسلام، ورد عليه بأن التأصيل معناه وضع أصل، ولا يلزم منه أن يكون لما هو موجود، فربما كان لم يوجد.

وقد عرفوا التأصيل تعريفات عدة أهمها وأقربها للصواب تعريف إبراهيم رجب في ندوة (التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية) حيث قال: "التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية عبارة عن عملية إعادة بناء العلوم الاجتماعية في ضوء التصور الإسلامي للإنسان والمجتمع والوجود، وذلك باستخدام منهج يتكامل فيه الوحي الصحيح مع الواقع المشاهد، كمصدر للمعرفة، بحيث يستخدم ذلك التصور الإسلامي كإطار نظري لتفسير المشاهدات الجزئية المحققة، والتعميمات الإغريقية (الواقعية) وفي بناء النظريات في تلك العلوم بصفة عامة. "[11].

د- التوجيه الإسلامي لعلم النفس: اقترح هذا المصطلح فؤاد أبو حطب سنة (1977م) ولم يتلق بالقبول يومئذ، ثم أعاد اقتراحه في ندوة (التأصيل الاجتماعي لعلوم الاجتماعية) سنة (1986م) فقبل.

ومفهوم الوجهة عند فؤاد أبو حطب مصطلح يعود أصله إلى توماس كون، أحد فلاسفة العلم المعاصرين، ويرى في نظريته أن التقدم العلمي لا يتطور من خلال التراكم المعرفي فعند (كون) سابق للعلم فهو يوجهه، ويؤثر فيه وهو يتكون من الالتزامات العقلية والاتجاهات الاديولوجية لدى العلماء.

وتصور كون في مجمله مقبول، فالعلم يستند إلى أطراف معرفية، لكن أبو حطب اشتق من هذا العمل "التوجيه" استعمال الحركة العلمية كالواجهة أو الوجه وهذا لا ينهض دليلا كافيا لإلغاء المصطلحات الأخرى، وحصر الصواب في هذا المصطلح، وقياسا على رأي أبو حطب نقول التوجيه السلوكي في علم النفس بدلا من المدرسة السلوكية، والتوجيه التحليلي بدلا من المدرسة التحليلية، وهذا لم يقع فطبيعة العمل الذي تسعى إليه كل مدرسة من هذه المدارس هو إيجاد وجهة، ولكن التسمية شيء آخر.

هذا فيما يتعلق بالاسم أما ما يتعلق بالمحتوى اصطلاحا فإن معنى التوجيه الإسلامي لعلم النفس لا يختلف عن معنى التأصيل والأسلمة، فدلالة المصطلحات الثلاثة واحدة.

هـ- التفسير الإسلامي للسلوك: هذا الاسم اقترحه البعض، والمآخذ التي يمكن أن تؤخذ على مصطلح (علم النفس الإسلامي) والردود عليها فيما سبق يمكن أن تقال هنا، والفرق بين المصطلحين هو أن علم النفس الإسلامي يبدو أدق في التعبير عن حركة التأصيل من التفسير الإسلامي للسلوك كما أنه مصطلح عام لا يخص علم النفس فقط، لأن السلوك يدخل في جميع التخصصات.

وخلاصة أنه على الرغم من أن الجدل ما زال بين الباحثين حول اسم هذه الحركة إلا أن ملامحها بدأت تتضح، وتصبح موضع قبول عند الكثير، وإن علم النفس الإسلامي ليس فرعا من فروع علم النفس، وموضوعه ليس فقط دارس السلوك الديني عند المسلمين فالتراث النفسي في الحضارة الإسلامية ليس مجرد تفسير الآيات والأحاديث التي لها علاقة بالنفس، ولا رفض كل ما هو موجود في علم النفس المعاصر، والواضح من كل ما سبق أن علم النفس الإسلامي أو التأصيل الإسلامي عملية لا تعني إعادة بنائها وفقا للتصور الإسلامي، كما تعني التزام الخلق الإسلامي في البحث وفي مسار العلم، فلا هو مخالف للشريعة أو مضر بالمجتمع بأي وجه من الوجوه، هذا فيما يتعلق بالمحتوى، أما فيما يتعلق بالاسم فأي اسم اتسعت له اللغة، وكان معبرا عن أهداف حركة التأصيل الإسلامي لعلم النفس يجوز استعماله ولا مشاحة في الاصطلاح، وعلى هذا يرى عبد الله بن ناصر الصبيح (2001) أن مصطلحات علم النفس الإسلامي أو التأصيل الإسلامي كلها مصطلحات جائزة ممكنة الاستعمال من ناحية اللغة ومن ناحية المعنى، ولا حرج في استعمال أي منها[12].

4- موقف القرآن والسنة من التأصيل الإسلامي لعلم النفس:

ليس المقصود من التأصيل الإسلامي لعلم النفس جمع الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التي تحدثت عن النفس الإنسانية ولا هو الشروح التي ذكرت عنها في كتب التفسير

والحديث فحسب، ولكن المعنى العام لذلك هو محاولة توظيف العلوم الإنسانية (والطبيعية) إلى جنب العلوم الشرعية واللغوية لفهم أعمق وأوسع، لان الخلفيات الفكرية لفلاسفة العلم لها دخل كبير في دعم موقف طرف على آخر لذلك يكون من المفيد جدا للمسلمين دخول هذا الباب والاهتمام به حتى نخرج منه بأسلحة قوية تقوي "فلسفتنا الإسلامية"[13]. ولهذا التأصيل أو التوظيف للعلوم علم النفس وعلم الطبيعة والشريعة، اتجاهات حددها عز الدين توفيق (1998) كالتالي:

– **الاتجاه الأول**: ويرمي إلى التوسع في معنى الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التي ذكرت آيات الله في الآفاق، وفي النفس بإيراد الشواهد، والشروح من اكتشافات العلوم التجريبية، وهدف الاتجاه بيان الانسجام بين تفسير الظواهر بأسبابها الطبيعية ونسبتها إلى المشيئة الإلهية، فإذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ*وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[14] فيعمد المفسر إلى كشوف العلم في خلقة الجمل مثلا، ورأى الحكمة، والإبداع والجمال الكامنة في تلك الخلقة، ويستدعي كذلك معلومات عملية عن السماء، وكيف رفعت، ويبين وجه الانسجام بين نسبة هذا الرفع للجاذبية، ونسبته إلى مشيئة الله، فالمفسر في هذا الاتجاه يوسع من الأمثلة التي تساق عند شرح هذه الآيات ويستفيد من علوم عصره في ذلك.

– **الاتجاه الثاني**: ويرمي إلى بيان السبق العلمي للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التي تعرضت لحقائق تم اكتشافها حديثا، لتضاف شهادة أخرى على الشهادة البيانية الشرعية أن هذا القرآن من عند الله، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا النوع يسميه البعض الإعجاز العلمي وهو تفسير علمي كالأول إلا أن المحاذير فيه كثيرة، لأن الربط بين الآيات أو الأحاديث والنظريات العلمية التي تتميز بالقابلية للتغير المستمر يستدعي في بعضها الشك والتناقض، إلا إذا كانت حقائق علمية ثابتة فهي مجال للإعجاز مثل خلق الإنسان من نطفة فعلقة فمضغة، ثم كيفية التحول من نطفة إلى علقة إلى مضغة، فبيان مراحل الخلق حقائق ثابتة، وكيفية التحول بحث ونظريات،

والقرآن سبق إلى الإخبار بخلق الإنسان من نطفة فعلقة فمضغة، قبل أن يعرف الإنسان ذلك بمئات السنين، ولكنه لم يذكر كيفية هذا التحول فبقى مجالا للتفسير والتنظير.

– **الاتجاه الثالث**: ويرمي إلى استخراج من مجموع الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الواردة في موضوع علم معين لتعطي الوجهة الإسلامية لذلك العلم، ويتعلق الأمر بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، لأن موضوعها موضوع الإنسان، لأن الشريعة أصلا تزود العلم بمناهج وأخلاق ومعلومات وتوجيهات في التطبيق ويأخذ بالمقابل من كشوفه ما يشهد لصد عقائده وعدل شرائعه[15].

ففي هذا الاتجاه يصطحب الباحث التصور الإسلامي ويعتبره أصلا يسير في ضوئه، ويعتمد عليه ولا يحيد عنه ويحاول شرح المفاهيم التي مصدرها الوحي بما ثبت علميا من خلال التجريب، ومثال ذلك كمن يشرح أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر الأطفال بالصلاة إذا بلغوا سبع سنين بما ثبت علميا عن النمو الإدراكي للطفل في هذه المرحلة، لذا يجب على الباحث في جميع الأحوال استصحاب التصور الإسلامي للقضية التي يريد بحثها، ووردت الآيات في سياقها، وهذا الاتجاه بالذات يستلزم أمرين على الباحث التحلي بهما:

الأول: العلم الشرعي.

الثاني: وجود ضوابط يدرك بها الباحث المقبول والمردود في علم النفس وهذا يقتضي البحث في موقف التأصيل من علم النفس الحديث.

أ– ومن المهم جدا عند الكلام عن الأهمية الكبرى للمفاهيم القرآنية والنبوية عند الاستعمال والاستدلال بها أن يحتاط الباحث في استعمالات القرآن للكلمات ذات الدلالات المتنوعة، وعلى سبيل المثال كلمة (نفس) في القرآن الكريم وردت على عدة معان، والتي هي ذات الشيء وحقيقته، ونفس الإنسان (الجسم والروح)، والروح التي بها الحياة فإذا فارقته حل به الموت، ومكان الضمير عند الإنسان، وصفة للإنسان توجهه للخير والشر، والنفس للرجل والمرأة جنسه وقلبه، وهي شخص معين (آدم عليه السلام).

5- شروط التأصيل الإسلامي:

كتب عدد من الباحثين عن شروط التأصيل الإسلامي للعلوم الإنسانية والتي ينبغي أن يتحلى بها من يسعى للتأصيل، ومما يذكر في ذلك التمكن من العلم الشرعي، وقد اقترح عبد الله بن ناصر الصبيح (2001) شروطا يجب توفرها في طالب العلم أو المجتهد الذي يعتني بعلم النفس وهي قسمين:

أ- القسم الأول: قسم عام يضبط المنهجية الشرعية عند الباحث ويدور حول معرفة أصول الفقه أو القواعد التي يتوصل بها الباحث إلى استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، ومما يدخل في ذلك معرفة مصادر التشريع ووجود الاستدلال وقواعد الاستنباط ومقاصد الشريعة والقواعد التي تضبط أحكامها .

ب- القسم الثاني: قسم خاص تنضبط به تفصيلات علم النفس وجزئياته، ويدور حول الأحكام الشرعية المتعلقة بالقضايا النفسية كل على حدى، مثل أحكام البلوغ، والتكليف، والمسؤولية الجنائية والمرض النفسي، وأحكام التوبة، ومن ذلك أيضا العلم بالمصطلحات الشرعية حسب ورودها في الشريعة، فيدرك المعنى المراد منها مثل: الفطرة، القلب، العقل والحضانة، فلا يحرف هذه المصطلحات مجاراة للاصطلاح الحادث في علم النفس[16].

وذكر إدريس الوزاني (2009) أنه يجب على من يتصدى لهذا الميدان أن يتحلى بخمس خصائص أولها: الإخلاص وصدق النية فبدونها يصبح العمل خاويا من دفء العاطفة ومن بركات السماء وعمق الفكرة فتصبح الأسلمة ضربا من الزيف والنفاق، ثم معرفة الباحث بتخصصه الاجتماعي أو النفسي وتعمقه فيه، ثم معرفة شمولية بالإسلام دينا وصبغة متميزة لنظرة المسلم للكون والحياة وما بعد الحياة، أما الرابعة فهي اكتساب خبرات وافية عن دور الإسلام الحركي في التصدي لمشاكل المسلمين المعاصرة وحلها بوصفه أسلوبا للحياة وفكرا متجددا، والخاصية الخامسة هي قدرته الذهنية والابتكارية في استخلاص الجوانب المفيدة في تخصصه وربطها بالفكر الإسلامي واستخدامها للوصول إلى مفاهيم جديدة واجتهادات مرموقة[17].

وأشار إلى ذلك كثير من الباحثين كمحمد محروس الشناوي (1996) في تبني برامج علاجية تعتمد مبادئ وقيم الدين الإسلامي[18]. وحامد زهران (1980) من منطلق أن من أهم أسس النفس البشرية الثقافة والبيئة الإسلامية التي يعيشها المجتمع المسلم[19].

خاتمة:

وأخيرا ما زالت ضوابط البحث العلمي النابعة من تصور إسلامي في بداياتها ومهمة المشتغلين بالتأصيل الإسلامي تحرير هذه الضوابط وتيسيرها للباحثين في المستقبل القريب، وذلك بوضع برامج ومقاييس تدرس في مختلف التخصصات تتبنى مواضيع التأصيل ببيان أسسه ومنهجه وطرائقه، عوض الاهتمام بالتراكم المعرفي واستيراده دون نقد وتمحيص.

الهوامش:

[1]– أوغست كونت، **دروس في الفلسفة الوضعية**، نقلا عن إدريس نغش الجابري، العلوم الإسلامية ومدخل الابستمولوجيا وتاريخ العلوم، مجلة الدليل، العدد 01، مصر، ص:01.

[2]– توفيق محمد عز الدين. **التأصيل الإسلامي في الدراسات النفسية**، مصر،دار السلام، 1998م،ص: 224.

[3]–Gaston Bachlard, **La formation de l'esprit scientifique**, نقلا عن عبد القادر تومي، تطور العلوم والتقنيات في العصر الحديث، مقاربة ابستمولوجية، مجلة التربية والابستمولوجيا، العدد 05، 2013، الجزائر، ص:157.

[4]– سورة الذاريات، الآية 20.

[5]– سورة الشمس، الآية 7.

[6]– خالد بن أحمد الجابر. **نحوتأسيس نظرية نفسية إسلامية متكاملة**، مصر، شبكة العلوم النفسية، 2012م،ص: 6.

[7]– الصنيع صالح إبراهيم. **دراسات في علم النفس من منظور إسلامي**، المملكة العربية السعودية، دار عالم الكتب، 2002م، ص: 96.

[8]– خالد بن أحمد الجابر، **نحوتأسيس نظرية نفسية إسلامية متكاملة**، مرجع سابق، ص:4.

[9]– أولموجين، **دفاتر فلسفية،الحقيقة**، ترجمة محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي،دار توبال، الأردن، ص:78.

[10]– صادق السامرائي. **انعكاسات معرفية في مرآة حواراتنا النفسية**، مصر، شبكة العلوم النفسية،2012م،ص: 3.

[11]– عبد الله بن ناصر الصبيح ."التأصيل الإسلامي لعلم النفس"،**مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**، عدد22 (1428/01/17هـ)،ص: 450.

[12]– عبد الله بن ناصر الصبيح، **التأصيل الإسلامي لعلم النفس**،مرجع سابق، ص: 453.

[13]– الحوزي، **الأسس الابستمولوجيا لعلم النفس**،سلسلة محاضرات لسنة 2010،ص: 07.

[14]– سورة الغاشية، الآية 17.

[15]– توفيق محمد عز الدين. **التأصيل الإسلامي في الدراسات النفسية**، مرجع سابق،ص: 260.

[16]– عبد الله بن ناصر الصبيح، **التأصيل الإسلامي لعلم النفس**،مرجع سابق،ص: 555.

[17]– إدريس عبد السلام الوزاني. "الأبعاد النفسية لعلم السلوك الإسلامي"،**مجلة شبكة العلوم النفسية العربية**، عدد23 (2009م)، ص:2.

[18]– الشناوي محمد محروس. **العلمية الإرشادية**، مصر، دار غريب للطباعة،1996م، ص: 451 .

[19]– الشناوي محمد محروس. **المرجع السابق**،ص: 451 .